أثر التحولات السياسية والحراك الشعبي في الزيارة الأربعينية دراسة تاريخية

م.م بكر حازم إبراهيم مهدي الزبيدي
كلية العلوم السياسية- جامعة بغداد
Bakr.Hazem@copolicy.uobaghdad.edu.iq

الملخص

تهدف هذه الدراسة إلى استقصاء العلاقة الديناميكية بين التحولات السياسية والحراك الشعبي وتأثيرهما في تجسيد الزيارة الأربعينية في العراق، من خلال تحليل تطورها الرمزي وتفاعلها مع سياسات الحكومات العراقية المتعاقبة منذ تأسيسها عام ١٩٢١ وحتى مرحلة ما بعد ٢٠٠٣.

تُفصل الدراسة كيفية تعامل السلطات العراقية المتعاقبة مع الزيارة الأربعينية، مع تسليط الضوء على اعتبار الزيارة منبراً للتعبير عن الحراك الشعبي والرفض للإجراءات السلطوية القمعية، ويُبرز البحث أن هذا التطور السياسي والاجتماعي ساهم في إعادة صياغة معاني الزيارة واستخدامها كأداة تعبئة شعبية، وذلك من خلال تحليل البيانات المتوافرة ومراجعة المصادر الأولية والثانوية والدراسات أكاديمية. حيث تم التركيز على إبراز النقاط الرئيسية والأحداث الجوهرية التي تعكس تطور العلاقة بين الزيارة الأربعينية والتحولات السياسية في تاريخ العراق الحديث والمعاصر.

الكلمات المفتاحية: الزيارة الاربعينية، الحراك الشعب، التحولات السياسية

The Impact of Political Transformations and Popular Movements on the Arbaeen Pilgrimage: A Historical Study

Asst. Lecturer Bakr Hazem Ibrahim Mahdi Al-Zubaidi
College of Political Science – University of Baghdad

Abstract:

This study aims to investigate the dynamic relationship between political transformations, popular movements، and their impact on shaping the Arbaeen pilgrimage in Iraq, by analyzing its symbolic evolution and interaction with the policies of successive Iraqi governments from the country's establishment in 1921 to the post-2003 period.

The study elaborates on how successive Iraqi authorities have dealt with the Arbaeen pilgrimage، highlighting its role as a platform for expressing popular mobilization and resistance against authoritarian and repressive measures.

The research emphasizes that these political and social developments have contributed to reshaping the meanings of the pilgrimage and utilizing it as a tool for popular mobilization, through the analysis of available data and a review of primary and secondary sources as well as academic studies.

The focus is placed on identifying key points and pivotal events that reflect the evolving relationship between the Arbaeen pilgrimage and political transformations throughout modern and contemporary Iraqi history.

Keywords:Arbaeen Pilgrimage, Popular Mobilization, Political Transformations

مجلة علمية محكمة نصف سنوية
www.arbnj.com
رمضان - ١٤٤٧ هـ / آذار - ٢٠٢٦ م

المقدمة

تعد الزيارة الأربعينية ظاهرة دينية واجتماعية ذات أبعاد متعددة، إذ تجمع بين التعبير الشعائري والرمزية الدينية و الحراك الشعبي، وفي ظل التحولات السياسية العميقة التي شهدها تاريخ العراق على مدار العقود، أصبحت هذه الزيارة منصة لتعبئة الجماهير وتعبيرها عن المطالب الاجتماعية والسياسية.

تسعى هذه الدراسة إلى تحليل كيفية تأثير التحولات السياسية على طبيعة الزيارة الأربعينية، مع استقصاء مواقف الحكومات العراقية في فترات متباينة، وما كان لذلك من أثر في إعادة صياغة العلاقة بين الدولة والمجتمع.

إشكالية البحث:

يرتكز البحث على تساؤلات أساسية منها:

- كيف ساهمت التحولات السياسية في إعادة تشكيل طبيعة الزيارة الأربعينية واستخدامها كأداة للحراك الشعبي؟
- ما الدور الذي تلعبه الزيارة في تجسيد المطالب الشعبية ومواجهة السياسات الردعية؟
- كيف انعكست سياسات الحكومات المتعاقبة – منذ تأسيس الدولة عام ١٩٢١ مروراً بفترة النظام الملكي والحكم الجمهوري وصولاً إلى مرحلة ما بعد ٢٠٠٣ على العلاقة بين الدولة والمجتمع من خلال تعاملها مع هذه الظاهرة؟

أهداف البحث:

١. تحليل الجذور التاريخية للزيارة الأربعينية وتطور معانيها الرمزية عبر العصور.
٢. استقصاء أثر التحولات السياسية في استثمار الزيارة كأداة للحراك الشعبي خلال الفترات الرئيسية في التاريخ الحديث للعراق.
٣. تقييم سياسات الدولة في تعاملها مع الزيارة، مع إبراز الفروق بين السياسات الردعية التي سادت في الفترات السابقة والتحولات التي ظهرت بعد عام ٢٠٠٣.

مجلة علمية محكمة نصف سنوية
www.arbnj.com
المجلد الرابع، السنة الرابعة، الملحق (٧)

منهجية البحث:

يعتمد البحث على المنهج التاريخي التحليلي والمقارن، من خلال مراجعة المصادر الأولية والثانوية والدراسات الاكاديمية بهدف استخلاص رؤية موضوعية حول تطور الزيارة الأربعينية وتفاعلها مع المتغيرات السياسية والاجتماعية في العراق.

المبحث الأول
الجذور التاريخيـــــة للزيارة الأربعينية وتطورها الرمــزي

المطلب الأول: نشأة الزيارة الأربعينية:

تُعدّ زيارة الأربعين من أبرز الشعائر الدينية في الإسلام الشيعي، وتحظى بمكانة متميزة لدى عموم المسلمين وأتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام بشكل خاص، وتقام هذه الزيارة في ٢٠/ صفر من كل عام، إحياءً لذكرى مرور أربعين يوماً على استشهاد الإمام الحسين بن علي عليه السلام في واقعة الطفّ عام ٦١ هـ، تلك الواقعة التي مثلت ذروة الصراع بين الحق والباطل، ورسّخت قيم الثورة والكرامة والتضحية. الطوسي ، ١٩٨٧، ص٧٧٢ ؛ النوري، ٢٠٢٤، ص٤٤).

يعود أصل الزيارة الأربعينية إلى مجموعة من الروايات الموثوقة التي وردت في المصادر الشيعية، والتي تؤكد على أهمية زيارة الحسين في هذا اليوم تحديداً ومن أقدم هذه الروايات، ما ورد عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام في حديثه عن علامات المؤمن، حيث قال: «علامات المؤمن خمس: صلاة إحدى وخمسين، وزيارة الأربعين...»، مما يدل على أن الزيارة كانت ممارسة دينية معروفة بين الشيعة منذ القرن الثالث الهجري على أقل تقدير. (شمس الدين، ٢٠٠٤، ص ١١٥؛ الخرسان، ٢٠١٨، ص٢٩).

وتاريخيًا، يرجع بعض الباحثين أول زيارة لأربعينية الإمام الحسين إلى الصحابي الجليل جابر بن عبد الله الأنصاري، إذ زار قبر الحسين ﷺ في كربلاء بعد أربعين يوماً من استشهاده، برفقة التابعي عطية العوفي، في سنة ٦١ هـ، حيث قرأ عند القبر الشريف وأبدى الحزن والعزاء. وتُعدّ هذه الزيارة الرمزية أول تعبير جماعي عن الحزن والتضامن مع نهضة الإمام الحسين ﷺ .(الخرسان، ٢٠١٨، ص٢٩).

كما حرص أئمة أهل البيت ﷺبعد كربلاء على تعظيم يوم عاشوراء، وبيان فضل زيارة الإمام الحسين في هذا اليوم، وربطوا بين إحياء هذه الشعيرة وبين الثواب الأخروي العظيم، فقد ورد عن الإمام جعفر الصادق ﷺ قوله: «من زار الحسين بن علي يوم عاشوراء وجبت له الجنة»، وفي رواية أخرى عنه: «من زار قبر الحسين بن علي، عارفًا بحقه، كان كمن زار الله في عرشه»، مما يعكس عظمة المقام الحسيني في وجدان المؤمنين. وعن الإمام الرضاﷺ جاء: «من ترك السعي في حوائجه يوم عاشوراء، قضى الله له حوائج الدنيا والآخرة، ومن جعله يوم مصيبته وبكائه، جعل الله له يوم القيامة يوم فرحه وسروره، وقرت عينه بنا في الجنان» (الطوسي، ١٩٨٧، ص٧٧٢).

وخلاصة القول، إن النشأة الروائية والتاريخية للزيارة الأربعينية، بما تحمله من دلالات دينية وروحية، أسّست لثقافة شعائرية متجذّرة لا تزال حيّة وفاعلة حتى يومنا هذا، وتُعدّ أحد أبرز مظاهر الارتباط الوجداني والرسائلي بالإمام الحسينﷺوقضيته.

المطلب الثاني: تطور المظاهر الرمزية للزيارة.

مرت زيارة الأربعين بتحولات عميقة في مظاهرها الرمزية عبر التاريخ، حيث لم تبق مجرد شعيرة دينية مرتبطة بذكرى استشهاد الإمام الحسين ﷺ، بل أصبحت رمزاً حياً لهوية مذهبية وثقافة نضالية واجتماعية تتجدد سنوياً، وقد انعكس هذا التطور على طبيعة الشعائر، وأشكال التعبير عنها، واتساع المشاركة الشعبية فيها. من خلال الابعاد التالية:

١. البعد الطقوسي والروحي:

في بداياتها، كانت الزيارة الأربعينية تُمارس بصورة فردية أو ضمن نطاقات مجتمعية ضيقة، وتركزت في زيارة قبر الحسين ﷺ وقراءة الأدعية والمراثي، ومع مرور الزمن، اتسعت مظاهرها لتشمل مجموعة من الممارسات العبادية والشعائرية التي يؤديها الزائرون بروح خاشعة، منها: المشي لمسافات طويلة باتجاه كربلاء، وإقامة المجالس الحسينية، وقراءة الزيارات الخاصة، والبكاء والعزاء على الإمام الحسين ﷺ، هذه الممارسات لا تُؤدى لمجرد العادة أو التقاليد، بل تحمل دلالات روحية عميقة تُعيد إحياء ذكرى كربلاء في وجدان الإنسان المؤمن (الكرباسي، ٢٠٠٣، ص٨٤-٩٠ ؛ زيدان، ٢٠٢٢، ص١٢١)، لذلك يُنظر إلى المشي إلى كربلاء كأحد أبرز شعائر الزيارة وكنوع من السير نحو الحقيقة والتحرر الداخلي، بما يعكس رمزية السلوك العرفاني القائم على تهذيب النفس، والتضحية، والتطهير الروحي، وقد ورد في الروايات عن الإمام الصادق ﷺ: «من خرج من منزله يريد زيارة الحسين بن علي ﷺ، «إن كان ماشياً كتب الله له بكل خطوة حسنة، ومحا عنه سيئة»، مما يُدلّل على عِظم البعد الروحي لهذا السلوك. (جبر، ٢٠٢١، ص٥٧٦-٥٧٧؛ الخرسان، ٢٠١٨ ص٣٦). كما تُعد الزيارة أيضًا فرصةً للارتباط العميق بالإمام الحسين ﷺ كرمز للحق والتضحية، وبالتالي فهي وسيلة لتجديد العهد مع المبادئ والقيم التي ضحّى من أجلها، كالإصلاح، والعدالة، والوقوف في وجه الظلم. وتترك هذه الأبعاد أثرًا باطنيًا في نفوس الزائرين، يجعل من زيارة الأربعين طقسًا تربويًا، يُسهم في صقل الهوية الإيمانية وتعزيز الولاء العقائدي.

٢. البعد الاجتماعي والتكافلي:

تطورت الزيارة لتصبح ظاهرة مجتمعية تعبّر عن التضامن والتكافل، حيث برزت تقاليد خِدمة الزائرين، وخاصة من خلال «المواكب الحسينية»، وهي تجمعات شعبية تقدم الطعام، والمأوى، والرعاية الصحية للزائرين مجانًا، إذ بلغ عددها خلال

العقد الاخير(١٢٩,٦٨٨) مما ساهم في تحول هذا السلوك الجماعي إلى أحد أبرز ملامح الزيارة، بما يعكس روح التعاون والإيثار في المجتمع العراقي بشكل عام. (ابراهيم، ٢٠٢١، ص٢٤١-٢٤٤). كما في الشكل رقم (١).

الجدول قم (١) اعداد المواكب (٢٠١٤-٢٠٢٤)

الملاحظات	عدد المواكب المسجلة	السنة الميلادية	السنة الهجرية
تقديرات غير رسمية	١٠٠٠٠	٢٠١٤ م	١٤٣٦ هـ
تقديرات غير رسمية	١١٠٠٠	٢٠١٥ م	١٤٣٧ هـ
تقديرات غير رسمية	١١٥٠٠	٢٠١٦ م	١٤٣٨ هـ
تقديرات غير رسمية	١٢٠٠٠	٢٠١٧ م	١٤٣٩ هـ
تقديرات غير رسمية	١٢٥٠٠	٢٠١٨ م	١٤٤٠ هـ
تقديرات غير رسمية	١٣٠٠٠	٢٠١٩ م	١٤٤١ هـ
انخفاض بسبب جائحة كورونا	١٠٠٠٠	٢٠٢٠ م	١٤٤٢ هـ
شملت مواكب من داخل وخارج العراق	١١٣٥٦	٢٠٢١ م	١٤٤٣ هـ
منها ٣٠٠ موكب من دول أجنبية	١٢٥٠٠	٢٠٢٢ م	١٤٤٤ هـ
تم تسجيلها من قبل العتبتين	١٢٧٤٨	٢٠٢٣ م	١٤٤٥ هـ
شملت ٢,٣٠٠ موكب في مركز المدينة	١٣٠٨٤	٢٠٢٤ م	١٤٤٦ هـ

المصدر: (العتبة العباسية، ٢٠٢٤ ؛ شبكة الإعلام العراقي ، ٢٠٢٤) .

٣.البعد السياسي والنضالي:

لم تكن زيارة الأربعين بمنأى عن السياقات السياسية التي أحاطت بها، بل كانت كثيرًا ما تتحول إلى تعبير عن الرفض السياسي والاستمرار في مسار الثورة الحسينية، ففي فترات المنع، خاصة في عهد الدولة العثمانية ثم النظام البعثي، واجهت الزيارة تضييقًا شديدًا، ومع ذلك حافظ الناس على إحيائها، أحياناً في الخفاء، وأحياناً بتحدٍ علني، مما رسّخ البعد النضالي لهذه الشعيرة، كمظهر من مظاهر مقاومة الاستبداد والتأكيد على الهوية الدينية. (المخزومي، ٢٠١٨، ص٥٤-٦٣).

٤.التحول إلى ظاهرة عالمية:

بعد سقوط النظام البعثي عام ٢٠٠٣، شهدت الزيارة نقلة نوعية في حجم المشاركة والتنظيم والشعارات. حيث تحوّلت إلى أكبر تجمّع ديني سنوي في العالم، يُشارك فيه ملايين الزوار من العراق وخارجه، أذ بلغت اعداد الزائرين خلال العقد الاخير (١٠٧,٩٩٩,٤٦٤) مليون زائر، وقد صاحب هذا التحول توسع في الرموز المستخدمة، كرفع الرايات، وترديد الشعارات، وتوثيق المسيرات، إضافة إلى التفاعل الإعلامي الرقمي الذي ساهم في نشر رسالة الزيارة عالمياً. (المخزومي، ٢٠١٨، ص٥٤-٦٣). كما في الشكل رقم (٢).

الجدول رقم (٢) أعداد الزائرين خلال زيارة الأربعين (٢٠١٤ - ٢٠٢٤)

الملاحظات	عدد الزائرين	السنة الميلادية	السنة الهجرية
لم تتوفر إحصاءات دقيقة	غير متوفر	٢٠١٤ م	١٤٣٦ هـ
لم تتوفر إحصاءات دقيقة	غير متوفر	٢٠١٥ م	١٤٣٧ هـ
تم باستخدام كاميرات العتبة العباسية	١١,٢١٠,٣٦٧	٢٠١٦ م	١٤٣٨ هـ
تم باستخدام كاميرات العتبة العباسية	١٣,٨٧٤,٨١٨	٢٠١٧ م	١٤٣٩ هـ
تم باستخدام كاميرات العتبة العباسية	١٥,٣٢٢,٩٤٩	٢٠١٨ م	١٤٤٠ هـ
تم باستخدام كاميرات العتبة العباسية	١٥,٢٢٩,٩٥٥	٢٠١٩ م	١٤٤١ هـ
تم باستخدام كاميرات العتبة العباسية	١٤,٥٥٣,٣٠٨	٢٠٢٠ م	١٤٤٢ هـ
تم باستخدام كاميرات العتبة العباسية	١٦,٣٢٧,٥٤٢	٢٠٢١ م	١٤٤٣ هـ
تم باستخدام كاميرات العتبة العباسية	٢١,١٩٨,٦٤٠	٢٠٢٢ م	١٤٤٤ هـ
تم باستخدام كاميرات العتبة العباسية	٢٢,٠١٩,١٤٦	٢٠٢٣ م	١٤٤٥ هـ
تم باستخدام كاميرات العتبة العباسية	٢١,٤٨٠,٥٢٥	٢٠٢٤ م	١٤٤٦ هـ

المصدر: (وثائق العتبة العباسية، ١٧-٩-٢٠٢٢؛ مركز كربلاء للدراسات والبحوث، ٢٠٢٢).

خلاصة القول إن تطور المظاهر الرمزية للزيارة الأربعينية لم يكن تطوراً شكلياً فحسب، بل عبّر عن ديناميكية ثقافية وروحية واجتماعية تعكس عمق حضور الإمام الحسين عليه السلام في الوجدان الجمعي، وتجسد هذه المظاهر امتداداً فعلياً لقيم الثورة الحسينية، كما تمثل انعكاساً للهوية الاسلامية الراسخة، ووسيلة مستمرة لتأكيد الانتماء والمقاومة.

المبحث الثاني

سياسات الدولة والحراك الشعبي في ظل الزيارة الأربعينيـــة

المطلب الأول - سياسات التعامل الحكومي مع الزيارة خلال الفترات التاريخية:

شهدت زيارة الأربعين تحوّلات متعددة في علاقتها بالسلطة السياسية العراقية منذ تأسيس الدولة العراقية الحديثة عام ١٩٢١ وحتى سقوط النظام البعثي عام ٢٠٠٣، تأرجحت بين التهميش والتضييق، وأحيانًا الحظر، خصوصاً في ظل الأنظمة السياسية التي كانت نظرت إلى الشعائر الدينية، ومنها زيارة الأربعين، بوصفها تهديداً لوجودها السياسية، مما جعل من الزيارة ممارسة دينية محفوفة بأبعاد سياسية وأمنية خطيرة في بعض المراحل، ويمكن تقسيم تعامل الحكومات العراقية مع هذه الشعيرة إلى ثلاث مراحل رئيسة: العهد الملكي (١٩٢١-١٩٥٨)، ثم الجمهوريات المتعاقبة حتى سقوط النظام البعثي عام ٢٠٠٣.

أولاً - العهد الملكي (١٩٢١-١٩٥٨):

شهد العراق خلال العهد الملكي الممتد من عام ١٩٢١ إلى ١٩٥٨ نشوء دولة حديثة ذات طابع مركزي، تمحورت سياساتها حول بناء هوية وطنية موحدة في ظل التنوع الديني والمذهبي، ورغم أن الدستور الملكي لعام ١٩٢٥ نصّ على احترام الحريات الدينية، وعلى الرغم من اعلان العراق يوم عاشوراء عطلة رسمية إلا أن السلطة الملكية كانت تتعامل بحذر مع الفعاليات الدينية خاصةً تلك التي تتخذ طابعاً ثورياً ضد الظلم او تلك التي تعبّر عن هوية مذهبية واضحة، لما لها من طابع تعبوي ورمزي قد يتقاطع مع هاجس الدولة في فرض الاستقرار وضبط المجال العام. (الخزاعي، ٢٠١٨، ص١٤٣؛ المخزومي، ٢٠١٨، ص٥٥).

لم يصدر عن السلطة الملكية حظر صريح لزيارة الأربعين، لكن الرقابة كانت حاضرة بقوة في رصد التجمعات الدينية، ومتابعة النشاطات المرتبطة بالشعائر الحسينية، كما أن التغطية الرسمية لهذه الزيارة كانت شبه معدومة، ما يشير إلى موقف ضمني يتسم بالتجاهل أو الحذر، خاصة في ظل التوجه القومي الذي كان يسعى إلى تقليص المظاهر الدينية الطائفية في المجال العام (حسين، ٢٠١١، ص١٤؛ الهاشمي، ٢٠١١، ص ٨٩).

مع ذلك، لم تنقطع الزيارة الأربعينية في هذه المرحلة، بل استمرّت كطقس ديني شعبي تمارسه الجماهير الشيعية بصورة تقليدية، وكان الزائرون يفدون إلى كربلاء سيرًا على الأقدام من مختلف مناطق العراق، رغم غياب الدعم المؤسسي وصعوبة الطريق، ما يعكس تجذر هذه الشعيرة في الوعي الجمعي الشيعي، وقدرتها على الصمود أمام سياسات التهميش الرسمية (شمس الدين، ١٩٧١، ص٣٩؛ المخزومي، ٢٠١٨، ص٥٧).

تجدر الإشارة إلى أن هذه المرحلة أسست لنمط من العلاقة المتوترة بين الدولة والمجتمع الشيعي، وهو نمط ظل يتكرّر لاحقًا بأشكال مختلفة، ويظهر أثره في طبيعة التعامل مع الشعائر الدينية، وفي مقدمتها زيارة الأربعين، التي استمرت تؤدى في إطار خاص بعيدًا عن الاعتراف الرسمي أو الدعم العلني.

ثانيًا: العهد الجمهوري المبكر (١٩٥٨-١٩٦٨):

شهدت فترة العهد الجمهوري المبكر في العراق (١٩٥٨-١٩٦٨) تحولات سياسية واجتماعية عميقة، حيث صعدت القوى القومية واليسارية إلى السلطة، مما أثر على العلاقة بين الدولة والشعائر الدينية، لاسيما تلك المرتبطة بالمذهب الشيعي، رغم أن حكومة عبد الكريم قاسم (١٩٥٨-١٩٦٣) أبدت مرونة نسبية تجاه إقامة مراسم زيارة الأربعين، إلا أنها فرضت قيودًا أمنية وتنظيمية على تنقل المواكب والتجمعات، خاصة

في مدينتي كربلاء والنجف، خشية استغلالها من قبل المعارضة السياسية، وقد تمثلت هذه القيود في مراقبة المواكب، وتحديد مساراتها، ومنع بعض التجمعات الكبيرة، وذلك في إطار سعي الحكومة للحفاظ على الأمن والنظام العام (حسين،٢٥-١٢-٢٠١٠).

بعد انقلاب ٨ شباط ١٩٦٣ وصعود حزب البعث للسلطة للمرة الأولى، اتخذت العلاقة بين الدولة والشعائر الدينية، ولا سيما زيارة الأربعين، منحى أكثر تشدداً، فعلى الرغم من قصر مدة حكم البعث (١٩٦٣-١٩٦٤) في تلك المرحلة، إلا أن الحكومة عمدت إلى تبني خطاب أيديولوجي قومي وعلماني متشدد، ما انعكس سلباً على حرية ممارسة الطقوس الدينية في الوسط الشيعي، فقد شهدت زيارة الأربعين في تلك السنوات تضييقًا ممنهجاً.(الخزاعي،٢٠١٨، ص١٤٤).

كما واجه بعض الساسة ورجال الدين الشيعة مضايقات واعتقالات بذريعة ارتباطهم بحركات دينية أو سياسية معارضة هذا الموقف الرسمي لم يكن منفصلاً عن صراع أوسع كانت الدولة تخوضه مع المرجعيات الدينية، خصوصًا في النجف وكربلاء، إذ رأت في هذه الشعائر فرصة محتملة لتأجيج مشاعر المعارضة والتعبئة الشعبية. (حسين، ٣١-١٢-٢٠١٠).

وفي أعقاب انهيار حكم البعث الأول عام ١٩٦٤، وتشكيل حكومة عبد السلام عارف، استمرت السياسات التقييدية تجاه الشعائر الحسينية بوجه عام، وإن اتسمت بنبرة أقل قسوة، غير أن التوجّه القومي والإقصائي ظل حاضراً في الخطاب الرسمي حتى انها وصفت بالطائفية، إذ ولم تُسجَّل في تلك المرحلة مبادرات حكومية لدعم أو احتضان الممارسات الدينية، بما فيها زيارة الأربعين .(الرميحي، ٢٣-٤-٢٠٢٥).

وهكذا بقيت زيارة الأربعين خلال تلك السنوات تُمارس تحت رقابة أمنية مشددة، وفي أجواء سياسية متوترة، ما أضفى عليها طابعًا نضالياً وصبغة مقاومة، حيث تحولت من شعيرة دينية بحتة إلى فعل رمزي يعكس تمسك الشيعة بهويتهم في مواجهة سياسات التهميش والإقصاء.

ثالثًا - الحقبة البعثية (١٩٦٨-٢٠٠٣):

تُمثّل فترة حكم حزب البعث، وخاصة في عهد صدام حسين، واحدة من أكثر المراحل قمعاً وتضييقاً على ممارسة الشعائر الدينية في تاريخ الدولة العراقية الحديثة، وعلى رأسها زيارة الأربعين، فمنذ استيلاء الحزب على السلطة عام ١٩٦٨، بدأت الدولة تنتهج سياسة ممنهجة تهدف إلى تقليص الدور الديني والاجتماعي للشعائر الحسينية، بما في ذلك تقييد المواكب الحسينية، ومنع التجمعات الجماهيرية التي تُعدّها السلطة تهديداً محتملاً لأمن النظام واستقراره السياسي.(حسين، ٢٠١١، ص١٣٠).

وقد تصاعدت هذه السياسات القمعية بشكل ملحوظ خلال فترة السبعينات والثمانينات والتسعينات، حيث فرضت الحكومة البعثية حظراً شبه تام على الزيارة الأربعينية، خاصة المسيرات الراجلة من مدن الجنوب إلى كربلاء، وقد بلغت هذه السياسات القمعية ذروتها في انتفاضة صفر عام ١٩٧٧ التي جاءت نتيجة لمنع السلطات البعثية للزائرين من أداء المسير التقليدي إلى كربلاء، فانطلقت مظاهرات سلمية من مدينة النجف احتجاجاً على هذه القيود، واجه النظام هذه الانتفاضة بوحشية مفرطة، إذ قامت القوات الأمنية باعتقال المئات من المشاركين، وأعدمت عدداً من القادة الدينيين والشباب، أبرزهم الشيخ عارف البصري ورفاقه، بعد محاكمات صورية بتهم «التحريض على الفتنة» و«الانتماء لحركات دينية محظورة» ، وقد وُثقت حالات كثيرة من الاعتقالات التعسفية، بل والإعدامات بحق المشاركين في هذه الزيارات، بدعوى مخالفة التعليمات الأمنية أو التحريض ضد الدولة .(الحسوني والزهيري، ٢٠٢٠، ص١٠-١٤).

واستمر البعث بعد ذلك في سياسته القمعية من خلال التضيق على مراسيم الزيارة الاربعينية فأوفقاً لتقارير منظمات حقوق الإنسان، فقد كانت السلطات الأمنية تُقيم حواجز تفتيشية صارمة، وتستخدم أساليب تعذيب ممنهجة بحق من يُشتبه بمشاركته في إحياء هذه المناسبة، حتى وإن كانت في إطار فردي أو عائلي (19-Human Rights Watch, 2003, PP.16).

وخلال فترة الثمانينات والتسعينات اتخذ النظام البعثي منحى أكثر قسوة وتشدّداً تجاه شعيرة زيارة الأربعين، خاصةً مع تصاعد الحرب العراقية-الإيرانية (١٩٨٠-١٩٨٨)، رأى النظام البعثي في أي مظهر ديني شيعي - وخاصةً زيارة الأربعين يشكل خطراً وجودياً، يُحتمل أن يُستغل من قبل ايران، كما كان يروج له، عليه فرضت السلطات حظرًا شبه كامل على المسيرات الراجلة، وجرى تجريم إقامة المواكب الحسينية تحت ذريعة الحفاظ على «الوحدة الوطنية» و»مواجهة الطائفية». وقد رافق ذلك اعتقالات جماعية لمنظّمي المواكب، وتفكيك للبُنى الخدمية المرتبطة بالزيارة، واعتبار أي تنظيم شعائري تهمة أمنية تهدد أمن .(القيسي والعكيلي، ٢٠٢٢، ص١٠-١٥).

أما في التسعينات، فقد بلغ التضييق ذروته، لا سيما في أعقاب الانتفاضة الشعبانية عام ١٩٩١، التي كان لشيعة جنوب العراق - ومن بينهم زائري كربلاء دورٌ بارز فيها، مما دفع النظام الى أعادة قراءة الطقوس الدينية، وخاصةً الأربعينية، بوصفها مساحاتٍ محتملة للتحشيد السياسي والمقاومة، فصعّد من حملات القمع والتطويق الأمني، كانت الطرق المؤدية إلى كربلاء تخضع لحصار أمني مشدد، حيث نُصبت الحواجز العسكرية، وتم اعتقال المئات ممن شاركوا في المسيرات الدينية، بل ووثقت تقارير حقوقية حالات إعدام ميدانية بحق مشاركين في شعائر الأربعين (حسين، ٢٠١١، ص١٣٤؛ Human Rights Watch, ٢٠٠٣) وعلى الرغم من شدة هذه الإجراءات القمعية، فإن الشعائر الأربعينية لم تُمحَ من الذاكرة الدينية

مجلة علمية محكمة نصف سنوية
www.arbnj.com
رمضان - ١٤٤٧ هـ ، آذار - ٢٠٢٦ م

والوجدانية للمجتمع الشيعي، بل ازدادت تجذراً وتحولت إلى رمز نضالي يعبّر عن مقاومة الاستبداد والتمسك بالهوية العقائدية، فضلاً عن ذلك ساهم القمع البعثي في تعميق البعد السياسي–الديني للزيارة، حيث أصبح أداؤها يُعد فعلًا من أفعال التحدي والصمود، لا سيما لدى فئات الشباب والناشطين الدينيين، كما نشطت بعض الحوزات والمجموعات الدينية في تنظيم زيارات سرية أو بديلة، تستعيد الطابع الرمزي للزيارة وتُبقي على شعلة الحسين مشتعلة في ضمير الأمة.

المطلب الثاني - تحولات الزيارة في مرحلة ما بعد ٢٠٠٣ :

شهدت زيارة الأربعين بعد عام ٢٠٠٣ تحولات جذرية في بنيتها التنظيمية، ورمزيتها السياسية والاجتماعية، وذلك على خلفية التغيرات العميقة في النظام السياسي العراقي إثر سقوط نظام حزب البعث وتأسيس نظام ديمقراطي تعددي جديد، فقد أضحت الزيارة مجالًا مفتوحًا للتعبير الديني الشعبي، وتحولت من شعيرة كانت تُمارس تحت القيود الأمنية الصارمة إلى ممارسة جماهيرية واسعة تجسد حرية الهوية الدينية وتماسك النسيج المجتمعي العراقي بشكل كامل.(مهدي ومحمد، ٢٠٢٢، ص٢٩٥).

فبعد عقود من القمع والتهميش والتضيق، استعادت زيارة الاربعين زخمها بمشاركة غير مسبوقة من ملايين الزائرين، حيث أصبحت الدولة ذاتها تُسهم في تأمين الزيارة وتوفير الدعم اللوجستي، بالتعاون مع المؤسسات الدينية والمجتمعية، كما أن مؤسسات الدولة تبنت، بدرجات متفاوتة، خطابًا يعترف بقيمة زيارة الأربعين كجزء من الهوية الدينية والثقافية للبلاد، وقد ظهر ذلك في إشراك المؤسسات الرسمية في تنظيم مراسم العزاء وتسهيل حركة الزائرين، وخاصة في المحافظات الجنوبية.(ابراهيم، ٢٠٢١، ص٢٤٣-٢٤٥).

إلى جانب ذلك، أصبح للزيارة بعدٌ سياسي ومجتمعي واضح، إذ اتخذها الناشطون والتيارات الاجتماعية منبراً للتعبير عن مطالبهم، لا سيما في أوقات

الأزمات السياسية، وخير مثل على ذلك احتجاجات ٢٠١١ و٢٠١٩، حيث رُفعت شعارات إصلاحية داخل مواكب الزائرين، تدعو إلى محاربة الفساد وتحقيق العدالة الاجتماعية ومحاربة الفساد، مستلهمة في ذلك جوهر ثورة الإمام الحسين عليه السلام التي قامت على مبدأ «الرفض والاحتجاج» ضد الظلم والانحراف السياسي، وقد أسهمت هذه التحولات في بروز الزيارة كأداة رمزية للمقاومة المدنية ومجال للضغط السياسي السلمي.(عيدان، ٢٠٢١، ص٧٨؛ مصطفى، ١٩-١٠-٢٠١٩).

في ذات السياق، نشأت بنية تنظيمية موازية للدولة متمثلة في المواكب الحسينية وهيئات الخدمة، التي توسعت بشكل كبير لتشمل شبكات معقدة من المتطوعين، والخدمات، والتنظيم المدني. هذه المواكب لا تؤدي فقط دورًا طقوسيًا، بل أصبحت تعكس حيوية المجتمع الشيعي وتنظيمه الذاتي، وقدرته على التعبئة الجماهيرية خارج الإطار الرسمي، ما يشير إلى أن الزيارة تحولت إلى ممارسة مدنية ذات أبعاد سياسية وروحية واجتماعية متداخلة .(ابراهيم، ٢٠٢١، ص٢٤٤-٢٤٥).

ومن اللافت أيضًا أن الزيارة بعد ٢٠٠٣ اتخذت بعدًا دوليًا متناميًا، فقد أصبح الحضور الإقليمي والدولي لافتًا، خاصة من دول الخليج وإيران وباكستان والهند، مما أكسبها بُعدًا عابرًا للحدود يُعبّر عن تشكّل هوية شيعية كونية حول رمز الحسين وقيم كربلاء.(المخزومي، ٢٠١٨، ص٢٧٨).

رغم ذلك، لم تخلُ المرحلة من تحديات أمنية واقتصادية، إذ تعرّضت المواكب والزائرون لهجمات إرهابية من قبل الجماعات المتطرفة، خصوصًا خلال الفترة ٢٠٠٥-٢٠١٤، مما أعاد للزيارة طابعها النضالي في مواجهة العنف الطائفي والإرهاب، ورسّخ رمزية الحسين كرمز للحرية في مواجهة الظلم والطغيان، وهي دلالة وجدانية وثقافية راسخة في الوعي الشيعي.(مهدي وسلمان، ٢٠٢٢، ص٢٩٢-٢٩٣).

الخاتمة

إن الزيارة الأربعينية، بما تحمله من رمزية دينية وسياسية واجتماعية، مثلت عبر التاريخ العراقي الحديث والمعاصر مساحة حيوية لتفاعل المجتمع مع السلطة، وقد بيّن البحث أن التحولات السياسية، منذ تأسيس الدولة العراقية عام ١٩٢١ وحتى مرحلة ما بعد ٢٠٠٣، تركت تأثيرات عميقة على طبيعة الزيارة وممارساتها، سواء من حيث التقييد والمنع كما حدث خلال العهود الملكية والجمهورية والبعثية، أو من حيث الانفتاح والدعم النسبي كما في الحقبة اللاحقة.

وقد ساهمت الزيارة، على مدار هذه التحولات، في التعبير عن الرفض الشعبي لكل أشكال الظلم السياسي والاجتماعي، مجسدةً قيم الثورة الحسينية في صور نضالية سلمية ومدنية، ومن خلال تحليل الممارسات الحكومية تجاه هذه الشعيرة، يمكن القول إن زيارة الأربعين كانت ولا تزال مرآة عاكسة لطبيعة العلاقة بين السلطة والمجتمع، ومؤشرًا على مدى احترام الدولة للهويات الدينية والثقافية لمواطنيها.

كما أظهرت الدراسة أن التحولات ما بعد ٢٠٠٣ مكّنت الزيارة من استعادة ألقها ورمزيّتها، بل وأسهمت في تحويلها إلى تظاهرة عالمية ذات أبعاد سياسية واجتماعية عابرة للحدود، مع الحفاظ على جوهرها الديني والروحي العميق.

النتائج

استنادًا إلى ما تقدم، توصّل البحث إلى النتائج الآتية:

١. شكّلت الزيارة الأربعينية مجالًا ثابتاً للمقاومة الرمزية والاجتماعية ضد مشاريع التهميش والقمع، وكانت حاضرة في كل مراحل التغيير السياسي في العراق.

٢. اتسمت سياسات الحكومات الملكية والجمهورية المبكرة بالحذر والرقابة إزاء الزيارة، بينما تبنّى النظام البعثي سياسات قمعية صارمة بلغت ذروتها في حظر الزيارة واعتقال المشاركين.

٣. رغم القمع الشديد، احتفظت الشعيرة بحضورها الرمزي والديني، مما أكسبها قوة إضافية باعتبارها تعبيرًا عن الهوية الشيعية وأداة للاحتجاج السلمي.

٤. بعد ٢٠٠٣، تحولت الزيارة إلى ممارسة دينية ومجتمعية واسعة النطاق، أصبحت تمثل مساحة حرة للتعبير عن المطالب الاجتماعية والسياسية والإصلاحية.

٥. ساهم التطور الإعلامي والدعم المؤسسي وشبكات المواكب الدينية في تحويل الزيارة إلى حدث دولي له أبعاد اجتماعية وثقافية تتجاوز حدود العراق.

التوصيات

بناءً على ما توصل إليه البحث، يمكن اقتراح التوصيات الآتية:

١. ضرورة دعم وتعزيز حرية ممارسة الشعائر الدينية، ومنها زيارة الأربعين، بما يتماشى مع مبادئ حقوق الإنسان واحترام التعددية الدينية والمذهبية.

٢. تبني استراتيجية وطنية تسعى إلى حماية الزيارة الأربعينية من الاستغلال السياسي أو الطائفي، والحفاظ على طابعها الديني والإنساني العام.

٣. تشجيع البحث الأكاديمي المستمر حول ظاهرة الزيارة الأربعينية، لتوسيع الفهم النظري والعملي لدورها في بناء الهوية الوطنية وتعزيز السلم الأهلي.

٤. دعم المبادرات الاجتماعية والخدمية التي تنشأ حول الزيارة، لما لها من أثر إيجابي في تعزيز التكافل الاجتماعي والوحدة الوطنية.

٥. تعزيز التوثيق الإعلامي والأكاديمي لمظاهر الزيارة الأربعينية، بما يساعد في تقديم صورة دقيقة عنها للعالم، وتأكيد بعدها الحضاري والديني.

المصادر

١. الطوسي، ابي جعفر محمد بن الحسين، ١٩٨٧، مصباح المتهجد، طهران: مركز بحوث الحج والعمرة، ص٧٧٢.

٢. النوري، ابتسام سعدون ونيران يوسف جبر، ٢٠٢٤، البعد الإعلامي ودوره في تضليل الزيارة الأربعينية المشاركين العرب، عدد خاص بالمؤتمر العلمي الدولي السابع لزيارة الاربعين-الجزء الثاني، مجلة السبط، ص٤٤.

٣. شمس الدين، محمد مهدي، ٢٠٠٤، ثورة الحسين: ظروفها الاجتماعية وآثارها الإنسانية. بيروت: دار التعارف، ص ١١٥.

٤. الخرسان، السيد شبيب مهدي، ٢٠١٨، زيارة الاربعين اصلها- منشأها- فوائدها، كربلاء: العتبة الحسينية المقدسة، ص٢٩.

٥. الكرباسي، الشيخ محمد صادق، ٢٠٠٣، موسوعة زيارة الإمام الحسين عليه السلام، الجزء الأول، لندن: المركز الحسيني للدراسات، ص٨٤-٩٠.

٦. زيدان، حسين حسين و فاطمة نون شاني، ٢٠٢٢، دور الزيارة الأربعينية في تعزيز ثقافة التعايش السلمي المجتمعي، مجلة السبط، مركز كربلاء للدراسات والبحوث، المجلد ٧، العدد ٢، ص ١٢١.

٧. جبر، وفاء حسن، ٢٠٢١، دور الزيارة الاربعينية في التعايش السلمي بين الاديان، المؤتمر العلمي والثقافي الدولي الاول لجامعة واسط، مجلة كلية التربية- جامعة واسط، العدد الخاص ٢٠٢١، ص٥٧٦-٥٧٧.

٨. ابراهيم، علياء سعد، ٢٠٢١، دور التضامن الاجتماعي في تحقيق زيارة الاربعين، وقائع المؤتمر العلمي الدولي الثالث لزيارة الاربعينين المباركة، المجلد ٧، العدد٢، ص٢٤١-٢٤٤ .

٩. العتبة العباسية، قسم الشعائر والمواكب، التقارير السنوية لعداد المواكب المشاركة في زيارة الأربعين، https://alkafeel.net.

١٠. شبكة الإعلام العراقي ، وكالة الأنباء العراقية، تقارير اعداد المواكب في الزيارة الاربعينية، https://www.ina.iq/ .

١١. المخزومي، صادق، ٢٠١٨، زيارة الاربعين دراسة سوسيولوجية ميدانية، النجف، نشر مؤسسة اديان للثقافة والحوار، ص٥٤-٦٣ .

١٢. وثائق العتبة العباسية، مكتب الامين العام، اعداد الزائرين وفقاً لمنظومة العد الالكتروني في العتبة العباسية، العدد ٧٤٥٢، ١٧-٩-٢٠٢٢؛ مركز كربلاء للدراسات والبحوث، التقرير الإحصائي لزيارة الأربعين، https://c-karbala.com/ar/sdfagdhfj.

١٣. الخزاعي، نجم عبد الله، ٢٠١٨، المذهب الشيعي والدولة العراقية الحديثة: جدلية العلاقة بين الدين والسياسة. بيروت: دار الرافدين، ص١٤٣.

١٤. حسين، عبد الخالق، ٢٠١١، الطائفية السياسية ومشكلة الحكم في العراق ، بغداد ،دار ميزو بوتيميان، ص١٤.

١٥. الهاشمي، محمد حسين، ٢٠١١، الحياة الدينية في العراق الملكي ١٩٢١-١٩٥٨، بغداد، مركز البحوث والدراسات في وزارة الثقافة، ص٨٩.

١٦. شمس الدين، محمد مهدي، ١٩٧١، ثورة الحسين في الوجدان الشيعي، النجف، مطبعة الاداب،ص٣٩.

١٧. حسين، عبد الخالق اسماعيل، ٢٥-١٢-٢٠١٠، الطائفية في العهد الجمهوري القاسمي والعارفي، الحوار المتمدن، العدد ٣٢٢٦، على الموقع الالكتروني: https: / /www.ahewar.org /debat /show.art.asp?aid=٢٣٩٥٢٦.

١٨. الرميحي، حيدر،٢٣-٤-٢٠٢٥، سلسلة الاربعين المعرفية/ الحلقة الرابعة (تتمة) الخلفيات التاريخية لزيارة الاربعين، https://clay-board.com/archives/35877.

١٩. حسين، عبد الخالق اسماعيل، ٣١-١٢-٢٠١٠، الطائفية في عهد حكم البعث، الحوار المتمدن، العدد ٣٢٣٢، على الموقع الالكتروني: https: / /www.ahewar. org /debat/show.art.asp?aid=٢٤٠١٦٤.

٢٠. الحسون، الشيخ محمد و عبد الحليم الزهيري، الاثار السياسية والحركية لانتفاضة صفر الخالدة سنة ١٩٧٧، بغداد، مركز الرافدين للحوار، ٢٠٢٠، ص١٠-١٤. Human Rights Watch. (٢٠٠٣). Iraq: State of the repression under Saddam Hussein. Retrieved from.

٢١. القيسي، محمد فهد وعلي خضر العكيلي، ٢٠٢٢، موقف السلطة الحاكمة من زيارة الأربعين ١٩٦٨-٢٠٠٣السبط- مركز كربلاء للدراسات والبحوث- العتبة الحسينية المقدسة، العدد ٢، الجزء ٢، المجلد ٥، ص١٠-١٣.

٢٢. الساعدي، عبد الجليل حسين علوان، ٢٠١٥، الإدارة الاستراتيجية للحكومات العراقية قبل وبعد٢٠٠٣، بغداد، دار الدكتور للعلوم الإدارية والاقتصادية، ص٢٩٠.

٢٣. مهدي، هدى سعيد وجنان محمد، ٢٠٢٢، الهجمات الارهابية وتأثيرها في السلم المجتمعي الزيارة الاربعينة انموذجاً، وقائع المؤتمر العلمي الدولي الخامس لزيارة الاربعين المباركة، كربلاء، مجلة السبط، مجلد ٨، عدد٤، ص٢٩٥.

٢٤. حمزة مصطفى، مقالة منشور في صحيفة الشرق الاوسط، ١٩-١٠-٢٠١٩، على الموقع الالكتروني: https://aawsat.com/home/article/1953376.

٢٥. عيدان، وسن صاحب، ٢٠٢١، الزيارة الاربعينية ودورها في تعزيز ديناميكية الاصلاح والسلم المجتمعي، وقائع المؤتمر العلمي الثالث لزيارة الاربعين المباركة، كربلاء، مجلة السبط، مجلد ٧، عدد٢، ص٧٨.